محاضرة ثانية سنة ثالثة ودعوة تاريخ الخطابة عند اليونان والرومان

مقدمة: مما لاشك فيه إن الخطابة تعد من أهم الوسائل الملازمة للمصلحين والثائرين على مر التاريخ الإنساني , فالخطابة فن قديم نشأ مع الإنسان، وصعد معه مدارج الرقي، لذلك لا نجد أمة من الأمم عبر التاريخ لم تعرفها، إذ أنها لازمة من لوازم الحياة الإنسانية، لأن الناس حين يجتمعون في مكان واحد يحتاجون إلى بيع وشراء وأخذ وعطاء، وتنافس على القيادة والرئاسة وتسابق على جمع المال، وهم في سعيهم هذا، يختلفون في وجهات النظر، ويحتاجون إلى التعبير عما في نفوسهم، فيقف بعضهم يتحدث إليهم محاولا إقناعهم فإذا نجح في ذلك فهو خطيب، وما تحدث به خطبة، وإذا ما أراد الإنسان أن يدافع عن نفسه فليس له سوي سلاحين الأول فيها مادي وهو السيف، والثاني معنوي وهو الخطابة لأن للكلمة أثرا قويا قد يسبق أثر السيف

أولا–: تاريخ الخطابة عند اليونان 1–نشأة وتطور الخطابة في اليونان: إن من الأمم التي اعتنت بالخطابة وازدهرت عندهم اليونان خاصة في دولتهم الأولى، ونفهم ذلك من كلام المؤرخين حين أرجعوا الأمر إلى اليونان في تدوين علم الخطابة، ووضع الأسس له والأركان فاليونان هم الذين قننوا العلم مادة لها أصول وقواعد، وذلك في عصر «بيركليس» حين أضحت أثينا منارة للخطباء الذين امتازوا ببلاغتهم وحسن إلقائهم. ولقد اهتم الخطباء في اليونان بوسائل التأثير والخطابة بشكل واسع وكبير نظراً لوجود تيارات وجماعات فلسفية متناقضة تسعى كل منها إلى جذب الأنصار والمؤيدين, وكثرة المرافعات القضائية والمجالس الشعبية والخطب السياسية التي هدفها إستمالة الجمهور بالدرجة الأساس, ونزيد الحديث عن الخطابة عند اليونان تفصيلا: بما قاله أستاذنا الدكتور عبد الجليل شلبي– رحمه الله–قضت البلاد اليونانية ردحا من الزمن وهي قبائل مفككة، تكاد كل قبيلة أو جماعة منها تكون مستقلة عن الأخرى، وبينها تنافس وسباق على أسباب العيش ووسائل الحياة، ولم تكن هذه القبائل ترجع إلى أصل واحد، ولكنها أجناس شتي نزحت إلى هذه الجزر ولم يربط بينها رابط إلا المجاورة واشتراك الأعمال.وخلال عدد من القرون ظلت هذه القبائل تتقارب ثم تتعاون وتتحد، على نحو ما تصف إلياذة هوميروس. والإلياذة –على ما يكسوها من خيال وتصورات وتعبيرات شعرية– هي كتاب اليونان المقدس، وكما يقوم العهد القديم بتسجيل تاريخ الإسرائيليين، تقوم الإلياذة بتسجيل تاريخ اليونان. وقد سجل التاريخ أحداثا كثيرة، وحروبا طويلة، كان من أبرزها قيام التنافس بين أثينا واسبرطة، الذي اشتد حتى أدي إلى حروب لم تنته إلا سنة 404 ق.م باستسلام أثينا وزعامة إسبرطة على البلاد اليونانية كلها، وغير ذلك من الأحداث. والخطابة تنضج وتقوي عادة في أيام الحروب والمشادات، ولقد اعتمدت الحروب اليونانية في شتي مواقفها على الخطابة، ولهذا ظهر خطباء لن ينساهم التاريخ، من هؤلاء «سولون الأثيني» و «ديموستنس.« ونجد أن حروب اليونانيين ومنازعاتهم السياسية زاخرة بالخطب كما في إلياذة(هوميروس) التي أورد فيها على ألسنة الالهة والأبطال في القرن العاشر قبل الميلاد، وإذا نحن رجعنا إلى الإلياذة نجد الخطابة اتخذت فيها مكانة قوية، فهي ميزة من ميزات أبطالها، وهي التي أبرزت مشاعرهم، وصورت أحاسيسهم، كما تجد الفلاسفة والمؤرخين اعتمدوا عليها في إقناع الجماهير، مما يدل على أن الخطابة كانت ذات مكانة في حياة اليونانيين وأخلاقهم.

2-السوفسطائيون المعلمون ودورهم في ازدهار الخطابة اليونانية: لما سادت الديمقراطية بلاد اليونان، وشاعت الحرية السياسية؛ نشطت الخطابة وشعر الأفراد بحاجتهم إليها، ونشأ بينهم معلمون يعلمون الخطابة والجدل، وظهرت طائفة السوفسطائيين يدربون على الجدل والمغالطة، وكان لعملهم لونان مختلفان: أولهما، إفساد المنطق، والجنوح إلى إقناع الناس والحكام بأدلة كثيرًا ما تكون مضللة، ولكنها تستهوي السامعين، ثاني اللونين لعملهم أنهم شجعوا الخطابة وأشاعوها، وجعلوها فناً مستقلا له قواعده وأصوله. يقول العلامة الشيخ أبو زهر : ويظهر أن أول من اتجه إلى استنباط تلك القواعد السوفسطائيون، فإنهم كانوا يعلمون الشباب في أثينا طرق التغلب على خصومهم في ميدان السبق الكلامي، وكيف يغالطونهم؟... وقد جاء من بعد هؤلاء أرسطو، فجمع قواعده، وضم شوارده في كتاب أسماه الخطابة كان أصلا لذلك العلم، ومرجعا يرجع الخطباء والمؤلفون في الخطابة إليه، وصدرا يصدرون عنه، ويردون موارده.

وخلال مائة عام من سنة 420 إلى سنة320 ق.م، كانت الخطابة اليونانية في قمة ازدهارها رواجا وسموا وإتقانا، وتميزت بوضوح أقسام ثلاثة هي: خطب المحافل، ، والخطب القضائية، وكان على محترفيها أن يجيدوا إعدادها وأن يلقنوها أصحابها من المتقاضين، فكان هذا تعليما وإتقانا للخطابة، والخطب السياسية التي ازدهرت ازدهاراً أوسع إبان الصراع بين أثينا ومقدونيا.وهكذا سجلت الخطابة اليونانية صورة الحياة في اليونان واتجاهها الفكري، كما سجلت سمو بلاغتهم وأساليبهم , وهكذا يمكننا القول بأن الخطابة عند اليونان عاشت رقيا وازدهارا وتقدما، حيث توفرت لها دواعي الازدهار وأسباب التقدم، والتي يمكن أن تتلخص في الآتي:

أ- أجواء الحروب والمناوشات التي عاشتها البلاد اليونانية.

ب- ظهور المسارح والفنون والآداب ونشاطها، وخاصة في إسبرطة، وكانت بمثابة منابر للخطابة، مما أدي إلى نهضة خطابية، وتدريب على حسن الإلقاء.

جـ- النظام السياسي الذي توفرت في ظله الحرية السياسية، وكان لكل صاحب رأي أو اتجاه، الحق في أن يعبر عن رأيه، ولما كانت الجماهير عادة تتأثر ببلاغة الخطيب وبيانه، أكثر من حججه المنطقية، كان الخطباء يتبارون في إجادة خطبهم أداء ومضمونا كي يجتذبوا مشاعر الجماهير، ويستميلوهم إليهم ويقنعوهم بآرائهم.

د- نظام القضاء، حيث كان مجلس القضاء يتكون من عدد من القضاة يزيد على المائة- وبلغ أيضا عند الرومان نحو أربعمائة- وهذا العدد الكبير يجعل القضاة جمهورا، ويدفع المتقاضين أن يسلكوا سبيل التأثير في عواطف القضاة. ويهتمون ببلاغة الخطبة أكثر من روحها القانونية، فكان ذلك مدعاة لنهضة الخطابة، لأنها هي التي تحقق للمتقاضين ما يريدون، وجدير بالذكر أنه لم يكن لدي اليونان نظام توكيل محام، فكان كل شخص يدافع عن نفسه، وقد اضطر هذا النظام جمهور الشعب أن يتعلم الخطابة ويتدرب عليها، فكان هناك معلمون يعلمون الناس الخطابة، وأقبل الشباب على تعلمها والتدرب عليها استعدادا لما عسي أن يواجههم من مواقف السياسة والقضاء.

3–نماذج من خطب العصر اليوناني:

أ–الخطيب ديموستين:ولد ديموستين في أثينا عام 384ق.م وتعتبر حياته نموذجاً فريداً للخطيب العبقري في كل زمان ومكان، وقد اهتم بالجانب السياسي مستفيدا من دراسته للقانون وقدرته الخطابية العظيمة، متخذاً منها سلاحاً شهره في وجه ملك مقدونيا الذي أراد بسط نفوذه على بلاد الإغريق وسلبهم حريتهم واستقلالهم، وقد اشتهرت هذه الخطب التي حثَّ بها شعب الإغريق على الثبات والنضال باسم (الخطب الفيليبية) وهنا نورد الخطبة الفيلبية الأولى التي يحاول فيها (ديموستين)أن يشعل الحماسة في شعب أثينا فيقول:(أيها الأثينيون، حتى متى سكوتكم وإخلادكم إلى التواني ؟ متى تدب الحياة في عروقكم، ويسري الشعور بالواجب في أعصابكم؟ ماذا تنتظرون؟ هل تنظرون معجزة تهبط عليكم من السماء؟ أي دافع للنفوس الأبية لعمل الواجب أقوى من تهديد مجدها بالزوال وشرفها بالتمزق وكلمتها بالتفرق؟ إنه لعار لن يفارقكم ولن يمحوه الموت يوم يواريكم في قبوركم، هل الوطنية أن تكتفوا بالذهاب هنا وهناك، ويسأل بعضكم بعضاً عما جاء من أنباء فيليب، فيقول واحد أنه مات، ويقول الآخر بل هو مريض، يا عجباً عجباً يمزق القلب أيُّ نبأ هناك غير أنَّ مقدونياً يسعى لقهر أثينا وسحق مجدها واستعباد اليونانيين جميعاً، ماذا عسى أن تصيبوا من المغانم لو مرض فيليب أو مات أو إنقضَّت على رأسه مصيبة من السماء؟ وحق الآلهة لئن لن تهبُّوا من رقادكم ليسلطن عليكم فيليب آخر ليس دون هذا في الشدَّة عليكم)).

ب– الخطيب لوسياس"ونورد هنا خطبة من خطب اليونانيين وهي للخطيب المشهور «لوسياس» الذي ولد سنة 459 ق.م وعمَّر أكثر من ثمانين عاما .ومن خطب لوسياس الشهيرة خطبة أعدها للدفاع عن شاب مقعد كان يحصل على معونة من الحكومة، ثم اتهم بأنه كان يدعي ادعاءات كاذبة للحصول على هذه المعونة، وفي هذه الخطبة تبدو روح السخرية والتهكم، ومنها:

شكرا للمدعي على تقديمي لهذه المحاكمة، لم أكن –حتى هذه الساعة– أجد سببا به أتحدث عن حياتي، وقد أتاح المدعي لي هذا السبب، وسأبين في حديثي مدي خطئه وكَذِب تُهَمِه، وأوضح لكم بالأدلة القاطعة أن حياتي تستحق كل عطف وثناء وإعجاب بدلا من الغيرة والأحقاد، لا أعتقد أن هناك سببا دفعه إلى تقديمي للمحاكمة إلا هذا السبب، بسبب الحقد والحسد. فما ظنكم بالخسة والحقارة التي يهوي إليها من يحسد شخصا يشفق عليه ويرثي لحاله الناس جميعا.

طبيعي أنه لم يقم بالتبليغ عني ليجني من وراء ذلك أموالا، وهو أيضا لا يقصد معاقبة عدو ويريد أن ينتقم منه وإنما دفعه إلى ذلك سوء خلقه، إذ لم يسبق لي أي معاملة معه. واضح لكم أيها السادة أنه يغار مني، فإنني –على الرغم من عاهتي هذه– مواطن شريف أحسن منه، إن المرء المنكوب المصاب، يعمل دائما كي يعوض عن نكباته الجسدية، بسجايا عقلية حميدة، ولو أبديت عقلية تناسب جسدي المنكوب الحظ. وصغت حياتي تبعا لذلك، لكنت شخصا سيئا مثله.. وقد اتخذ من ركوبي ذريعة لاتهامي. وليس لدي كثير أقوال عن ركوبي الذي تجرأ على ذكره، غير متخوف من الدهر ولا محترم لكم، فإني أعلم أن الذين يعملون تحت أي ضغط، أو يتحملون أعمالا فوق طاقتهم، يضطرون لتلمس لحظات للاستجمام، ويتخيرون أحسن سبل التمتع بالراحة من عناء ما يتحملون، إنني واحد من هؤلاء،

وقد وجدت في الركوب لأي مسافة شيئا من الراحة، ولو كنت ميسور الحال، لنشدت راحتي في ركوب بغل بدلا من استعارة جواد، ولكن ما حيلتي، وليس لدي ما أشتري به دابة، فأنا مضطر دائما إلى استعارة جواد.

إني لأعجب من هذا الاتهام، يراني أستعمل عصوين، وغيري من العرج والأصحاء يمشي وبيده عصا واحدة، فلا يرثي لي، ولكن يتهمني بالترف والإسراف، لأن الأغنياء وحدهم هم الذين يستطيعون شراء عصوين. وهكذا تمضي الخطبة تستعرض التهم واحدة بعد الأخرى لتفندها وتردها.

ثانيا: تاريخ الخطابة عند الرومان

1-نشأة الخطابة عند الرومان: ترتبط حال الخطابة الرومانية بحال الحكم في تلك البلاد، فقد نشأت في روما ملكية مطلقة، تستمد سلطانها من السماء، ومنذ سنة 500 ق.م تحولت إلى جمهورية ولم تكن حياة الرومان ممتّعة بحرية كافية،.ولم تظهر الخطابة في الرومان إلاَّ بعد اليونان بأمَدٍ بعيد لاشتغالهم بالحرب, ومع ذلك لم يكن حظ الخطابة عند الرومان بأقل من حظها عند اليونان, بل اشتهرت عندهم أيضاً وبشكل واسع, حتى صار الخطباء يجوبون البلاد يخطبون بالناس في الساحات العامة بموضوعات توحيها إليهم المخيلة فتحتفل لذلك المحافل, وتعقد الأندية والمؤتمرات. ومن المعروف أنَّ دولة الرومان قد إعتمدت على القانون اكثر من إعتمادها على الفلسفة, ولكنها بدأت تحس أنها بحاجة ماسة إلى معلم لفن الخطابة, مما أدى بالرومان إلى جلب معلم لهذا الفن من بلاد الإغريق, وفي أواخر عصر الجمهورية-سنة 146 ق.م.وأخذ الاهتمام يزداد بالخطابة عن الرومان فاستقدموا المثقفين اليونانيين الذين إمتازوا بالإلقاء الخطابي, ومن خلال هذا التمازج العلمي والفني والعملي بين الأساتذة المختصين بفن الخطابة اليوناني والطلبة الرومانيين الراغبين في إرتشاف العلم والمعرفة والتجربة نشأ الفن الخطابي الروماني الذي تميز بالفكر المنظم, والمعاني المنسَّقة والأسلوب الرائع فضلاً عن خواص جديدة كانت تمتاز بها الخطب الرومانية ألا وهي: تأثرها بالثقافة القانونية والموسيقية, المتأتيَّة من صلب روحية الشعب الروماني نفسه.ولذلك فقد نشطت الخطابة عند الرومان نشاطها عند اليونان, وكان الخطباء يأتون إلى ساحات الاجتماع حيث تلتئم المجالس يخطبون ويكثرون من الحركات وسط دوي القوم, مما أعطى للخطباء دوراً أكبر في الحياة العامة.ومع هذا لم تكن الخطابة عند الرومان ذات حظ من الرقي والانتعاش، بسبب ما كان يسود الحياة السياسية من استبداد وتسلط، على عكس ما كان لدي اليونان.

2-من خطباء العصر الروماني: كان من أبرز الخطباء في القرن الرابع ديموستين ومنافسه إسكيتر وكلاهما مِصْقَعٌ مُفَوَّه، قويّ الخصومة واللدد، بارع في تشقيق الكلام، ومن أشهر المنافرات بينهما تلك التي دفعت ديموستين إلي إلقاء خطبته المشهورة في سبيل التاريخ، وقصة هذه الخطبة أن إسكيتر هاجم ديموستين أمام الجمعية الوطنية، ورماه بالضعف، وبأنه لا يستحق الإكبار، ولا يحق له أن يتوج بتاج الزهر الذي كانت الجمعية تضعه على هامات المتفوقين، فألقي ديموستين خطبته هذه وخطباً أخري أوفت على الغاية في الفصاحة والبيان، وأفحم بها خصمه، واضطره إلى الهرب ودفع الغرامة فكان ديموستين يرسل إليه المال ليعينه على احتمال الغربة والفاقة؟، والحق أن السر في تفوق ديموستين تمثيله وتشدقه، لا تعليله وعمقه، وسحر الإلقاء لا قوة الفكر. وفيمايلي أبرز خطباء العصر:

أ–شيشرون: وكان أشهر خطباء العصر الروماني «ماركوس توليوس شيشرون» (106- 43 ق.م)، وهو خطيب وكاتب ومحام وسياسي، تلقي العلم على خيرة أساتذة عصره في روما وأثينا ورودس، واشترك في الحياة العامة، وتقلد مناصب في الدولة، ويعد(شيشرون) الوحيد الذي بقيت بعض قطع خطبه, لذا نجد أنَّ الرومانين حاولوا تعليم أبنائهم الخطابة من خلال إرسالهم إلى المدارس العامة التي تقبل الشبان الأغنياء خاصة ليتعلَّموا فيها الخطابة, وكان بعض المعلمين يمرنون طلابهم على إنشاء المرافعات في موضوعات خيالية في الخطابة, وقد حفظ لنا الخطيب(سينك) عدداً من هذه الدروس وموضوعات أطفال مخطوفين, وشطَّار من اللصوص, ولهذا النشاط وجدت عدة مؤلفات أخرى في علم الخطابة يُنسَب بعضها لشيشرون,وقد اختلفت الآراء في شيشرون،وأخذ عليه بعض المؤرخين صفات الغرور.. وخور العزيمة وعدم الثبات على المبدأ، لكنه كان محاميا قديرا وخطيبا بليغا، وكاتبا ممتازا، ترك مؤلفات عديدة في البيان والفلسفة، فضلا عن عدد من الخطب الرائعة، والخطابات المشهورة. وقد «طغت شهرته على من سواه بسعة ثقافته، وغزارة مؤلفاته، وتدفق بيانه في الخطابة.

ب– كونتليان:وممن نبغوا في الخطابة في الرومان كذلك، الخطيب الروماني، الأسباني الأصل، «كونتليان» الذي عاش في حدود القرن الأخير قبل الميلاد، فقد كان خطيبا بليغا، من علماء البيان، وقام بتدريس أصول البلاغة، وألف كتابا ضخما عن «أسس الخطابة» يتكون من اثني عشر جزءا، أولها يبدأ بالكلام عن تربية النشء، ثم ينتقل في الأجزاء الأخرى، إلى الكلام عن أصول الخطابة وقواعدها، وضع للخطيب المفوه خطة تساعده على إتقان فنه، فطلب منه الإلمام بثقافة عصره كلها، ونصح له بالروية، وبتقسيم الخطبة إلى أقسام هي: المقدمة، والعرض، والبرهان، والدحض، والخاتمة، وحذره من الإطالة وبين له أن الحذف أهم من الإضافة، لكي يبرأ الكلام من اللغو والفضول، ولقد اشتهر بأسلوبه الأخاذ الجميل، الذي أعجب به كل من قرأه، لذلك كان تأثيره كبيراً في العصور القديمة وفي عصر النهضة أيضا.وألَّف كونيتليان(42–95م) كتاباً أسماه (تهذيب الخطيب) وألَّف لنجينوس الحمصي (240–273م) كتاباً أسماه (المفلق) وبعد السيد المسيح عليه السلام كان كبار الخطباء من الحواريين ثم بقيت بعدهم في رجال الدين من القسيسين والأساقفة وكبار الساسة.